السترة القديمة

للكاتب الفرنسي فرانسوا كوبيه

للأستاذ حسن فتحي خليل

حينما كنت أشغل وظيفة كتابية بوزارة الحربية ، كان لي زميل في نفس حجرتي يدعى جان فيدال ، وهو ضابط سابق ، فقد ذراعه اليسرى في الحملة الإيطالية ، ولكنه كان يمكنه الاكتفاء بيده اليمنى للقيام بأعمال مدهشة

كان شخصا وديعا ونموذجا للجندي الطيب ، ومع أنه كان لا يتعدى الأربعين من عمره ، إلا أنه من المسير أن تميز شعرة بيضاء واحدة في لحيته ، ومع هذا اعتدنا أن نطلق عليه « الأب فيدال » احتراما له ، لأننا كنا نعلم الكثير عن حياته الباسلة في مسكنه المتواضع بحي جرينيل ، فقد ضم أخته إليه للاقامة معه فجاءت يتبعها طابور من الأطفال ، وكان دخله يتكون من معاشه ومرتبه .. وجعلته ثلاثة آلاف فرنك يعيش عليها خمسة أشخاص ، ولكنه بالرغم من هذه الأعباء ، نظيف الملبس فسترته نظيفة ، وقد شبك ذراعها اليسرى الفارغة بدبوس

وكنت أسكن حينئذ أحد أحياء جنوب باريس ، فكنت أصحبه دائما في طريقه إلى المنزل كما كنت أستشيره دائما ونحن في طريقنا ليحدثني عن حياته العسكرية السابقة ، وكنا نمر في طريقنا بالقرب من المدرسة الحربية فتواجهنا تلك السترات الرسمية المختلفة الألوان — وكنا في آخر أيام الإمبراطورية — الثانية التي يلبسها رجال الحرس الإمبراطوري ورجال الهوسار بملابسهم الخضراء ، والخيالة بملابسهم البيضاء والمدفعية بملابسهم الموشاة بالقصب والتي تستحق حقا أن يقاتل لابسوها من أجلها حتى الموت

وكنت أدعو زميلي في أمسيات الصيف لتناول كأسين من الأبسنت ، ونجلس في المقهى حوالي نصف الساعة ، وحينما تأخذه النشوة منذ تلك الكأس التي انقطع عن شربها منذ أن أصبح رب عائلة يندو رجلا مرحا ، وحينئذ أتوقع أن أسمع منه قصة عن الحرب نقطع بها بقية الطريق

وذات مساء ، وكان قد تناول كأسين من الشراب ، وقف فجأة أمام إحدى الحوانيت التي تباع فيها الملابس القديمة في شارع جرينيل ، كان حانوتا قذرا يعرض سترات قديمة لبعض الضباط لوثتها الأمطار ، وأحالت أشعة الشمس ألوانها ، وبعض الزراير والمسدسات العتيقة ، فأمسك فيدال بذراعي بيده الوحيدة ثم أشار بطرف ذراعه المقطوعة إلى إحدى هذه السترات . كانت لضابط برتبة الكابتن ، ثم قال « انظر .. هذه هي سترة رسمية عليها علامة الفرقة التي كنت أخدم بها . »

وتقدم ليرى الرقم المحفور على الأزرار ثم قال : « يا إلهي .. إنها نفس فرقتي »

وفجأة ارتعشت شفتاه وشحب وجهه وقال في صوت فزع . . « يا إلهي .. لربما كانت سترته هو » وأمسك بالسترة يقلبها بين يديه ، فلاحظ ثقبا صغيرا مستديرا في منتصف الظهر . . ثقب رصاصة ، وحوله بقعة سوداء لعلها آثار دم ، وكان ذلك الثقب يثير الفزع والشفقة ، وكأنه جرح حقيق ، ولمحت في وجه فيدال أن هناك قصة وراء هذه السترة ؛ فقلت له ونحن نتابع سيرنا لأدفعه حتى يحدثني بها :

— « إن ضباط فرقتك لا يجرحون من الخلف . . أليس كذلك ؟ »

ولكنه لم يسمعني .. كان يهمهم ببعض الكلمات قائلا :

— « كيف وصلت إلى هنا ؟ إنها لمسافة طويلة جدا من ميدان الحرب في ميلينيانو إلى شارع جرينيل — أنا أعرف أن هناك لصوصا يسلبون الموتى ملابسهم في الميدان ، ولكن من الغريب حقا أن تصل هذه السترة إلى ذلك الحانوت الذي لا يبعد عن المدرسة الحربية سوى مائة خطوة فحسب حيث تعسكر فرقته ، ولعله مر بها كثيرا ومرقها وكأنها ميت عاد إلى الحياة »

ولقد أثار ذلك اهتمامي حتى أني أمسكت بذراعه وقلت « اسمع يا فيدال » لا تتكلم هكذا فأنا لا أفهمك .. ولكن حدثني بالقصة كاملة .. بماذا ذكرتك هذه السترة ؟ »

وكنت أشك في أنه سيتكلم لأنه فحصني بنظرة كلها شك .. بل خوف ، ولكن يخيل إلى أنه اتخذ قرارا هاما فإذا به يبدأ قائلا :

«حسنا ، سأحدثك بالقصة فأنت رجل أمين وشاب مثقف، وأعتقد فى صدق حكمك ، وحينما أنتهى من سرد قصتى أرجو أن تصارحنى عما إذا كنت قد تصرفت تصرفا حكيما

والآن.. من أين أبدأ ؟ آه نعم .. أولا لايمكننى أن أذكر لك اسم ذلك الرجل لأنه مازال حيا ، ولكننى سأطلق عليه اسمه الذى اشتهر به فى الفرقة . كنا ندعوه «الظمأ» وكان ذلك الاسم يلائمه تماما لأنه كان لايبرح (الكانتين) أبدا وكان فى مقدوره احتساء اثنتى عشرة كأسا حتى ينتصف الليل

كان شاويشا فى فرقتى وكنا نعمل فى مؤخرة الجيش ، ومع أنه كان سكيرا ولصا ومحبا للشجار إلا أنه كان شجاعا كالأسد، له عينان زرقاوان باردتان كالصلب فى وجه لوحته الشمس ولحية حمراء . ولقد صرح له مرة بإجازة ثلاثة أيام قضاها فى الأحياء الساقطة بالجزائر مع ستة من المجرمين على شاكلته فأعيد إلى الثكنات مشجوج الرأس بعد أن تشاجر مع بعض الجنود فى منزل امرأة ساقطة . وأفاق بعدها فحكم عليه بالسجن أسبوعين ، وخفضت رتبته ، و كانت هذه هى المرة الثانية التى يجازى فيها بذلك الجزاء . ولقد كان من عائلة محترمة كما أن ثقافته طيبة ، ولو كان حسن السلوك لحظى بترقيات متوالية . ولكنه بعد مضى ثمانية عشر شهرا استعاد رتبته بفضل رئيسه الكابتن الذى قدر رباطة جأشه تحت وابل النيران فى الجزائر .

ولكن حدث أن نقل الكابتن المذكور وحل محله آخر كورسيكى فى الثانية والعشرين من عمره واسمه جنتيل وهو شاب طموح وضابط نشيط ، ولكنه يقسو فى معاملة جنده ، فهو يجازيك بالسجن أسبوعا إذا رأى زرارا مفقودا من سترتك ، أو لاحظ بعض الصدأ على بندقيتك . هذا فضلا عن أنه لم يخدم فى الجزائر من قبل فلم يكن يسمح بذلك التراخى فى النظام الذى تعودناه هناك حتى اعتبرناه حقا من حقوقنا .

ولأول وهلة نشأ شعور من عدم الاستلطاف بين الكابتن جنتيل وزميلنا «الظمأ» وكان جزاء أول كأس يرتكبه الشاويش تعمد استجابته لما يطلب منه أن حكم عليه بالسجن أسبوعا . و بينما فاجأه ثملا مرة ثانية حكم عليه بالسجن ستة أسبوعين . وقد قال الكابتن وهو يدينه :

— سأرى إن كنت ستتأدب !!

فلم يجبه الظمأ بشئ بل سار فى هدوء نحو زنزانته ، ولعل الكابتن كان سيغير اعتقاده لو رأى ذلك الغضب المرتسم فى عينى (الظمأ) الزرقاوين الصلبتين

وحدث بعد ذلك أن أعلن الإمبراطور الحرب على النمسا فنقلنا بحراً إلى إيطاليا ، ولن أحدثك عن الحملة بل سأتابع قصتى . ففى بداية المعركة معركة « ملنيانو » التى فقدت فيها ذراعى عسكرت فرقتنا فى قرية صغيرة . وقد ألقى علينا الكابتن خطابا قصيرا قبل أن يصرفنا وهو يذكرنا بأننا نقيم فى بلاد صديقة، وأنه يجب أن نعامل الناس معاملة طيبة ، وأن كل جندى يؤذى أحدا من السكان سيكون جزاؤه قاسيا .

وكان (الظمأ) يرتكن حينئذ على بندقيته بجانبى ، وكان ثملا بعض الشئ ، فهز كتفيه ولم يره الكابتن لحسن الحظ .

ولقد استيقظت منزعجا فى منتصف الليل وأسرعت نحو فناء المعسكر فوجدت — فى ضوء القمر — عدة جنود ورجال مدنيين يحاولون أن يخلصوا فتاة جميلة من بين ذراعى « الظمأ » وكان يقاومهم فى قوة بينما كانت هى تصيح جزعة داعية العذراء وكافة القديسين ليخلصوها منه ، فأسرعت للمساعدة ، ولكن كان الكابتن جنتيل قد سبقنى . كانت له عين صارمة آسرة فتراجع الشاويش أمامه ، فطمأن الكابتن الفتاة ببضع كلمات إيطالية ثم نظر إلى (الظمأ) وقال: « إن المتوحشين أمثالك يجب أن يعدموا .. وفى اللحظة التى سأرى فيها الكولونيل ستفقد رتبتك ثانية .. سنحارب غدا . ولعلك تحاول أن تموت فى المركة »

وآوينا للنوم ولكن كان الكابتن على حق ، فما أن شقشق الفجر حتى اندلعت نيران المدفعية ، فأسرعنا نحو أسلحتنا واندفعنا للقتال وكان (الظمأ) يسير بجانبى وعيناه تنذران بالسوء . وكانت الأوامر الصادرة إلينا تقضى بان نطارد النمساويين الذين لجأوا إلى الخنادق فى قرية « ملنيانو » فسرنا ما يقرب من الميل ولكن فاجأتنا نيران المدفعية وقتلت منا حوالى الخمسة عشر رجلا فأمرنا الضباط بالانبطاح أرضا بينما ظلوا هم واقفين . وفجأة شعرت بجسم بجانبى فالتفت فوجدت « الظمأ » ينظر إلى وهو ممسك ببندقيته

وقال أترى الكابتن ؟

قلت — نعم .. هل هناك شيء ؟

قال — حسنا .. لقد أخطأ حين وجه إلى كلماته في الليلة الماضية

ثم وضع بندقيته في لحظة خاطفة وأطلق النار ، فرأيت الكابتن وقد انحنى ثم دفع برأسه إلى الخلف تاركا سيفه وسقط في قوة على ظهره

فقلت وأنا أمسك بذراع « الظلم » — أيها القاتل !

ولكنه دفعني بعيدا وهو يقول — أيها الغبي .. كيف تثبت أني قتلته ؟

فقمت واقفا وأنا ثائر غاضب ، ولكن حدث في نفس تلك اللحظة أن هب بقية جنود الفرقة واقفين إذ صدرت أوامر الكولونيل بمهاجمة العدو

كنت فاقد الحياة حينئذ لأنه كان يتحتم علي أن أهاجم العدو مع زملائي وكان القتال مريرا .. حتى أني فقدت ذراعي في هذه المعركة

وكان الجنرال ممتطيا صهوة جواده ، فخورا بنا نحن جنوده الشجعان وهو يقول « عشتم يا رجالي فأنتم أشجع جنود العالم »

وكنت مازلت قابعا في مكاني وأنا أتحسس ذراعي المكسورة حين تذكرت جريمة « الظلم » الفظيعة . ورأيته وهو يغادر مكانه ويتقدم نحو الجنرال ، وقد شج رأسه العاري والدم يشخب منه منها الدم على جبينه وخديه ، وهو ممسك ببندقيته في يد وبيده الأخرى أحد الأعلام النمساوية التي استولى عليها . فنظر إليه الجنرال في اعجاب وقال « سأمنحك وسام الصليب »

وفقدت وعي بعدئذ . . ولكنك تعرف ما حدث لي ، لقد بتروا ذراعي وقضيت شهرين أهذي في المستشفى ، وحينما كنت أضطجع أرقا في فراشي ليلا كنت أتساءل عما إذا كان من واجبي أن أبلغ عن جريمة « الظلم » التي اقترفها ، ولكني كنت أعود فأقول إنه لا يمكني إثبات ذلك . ومع هذا فقد حدثت نفسي بأنه وإن كان مجرما إلا أنه أثبت أنه جندي شجاع ، لقد قتل رئيسه ولكنه استولى على علم نمسوي .. ولم أعد أستقر على رأي فيما أفعله

ولما شفيت أخيرا بلغني أن « الظلم » نال رتبة جديدة وأنعم عليه بوسام الصليب ، وقد دفعني ذلك الاعتزاز من وساى الذي ثبته الكولونيل بنفسه على صدري وأنا في فراشي بالمستشفى

وعلى أية حال لم أعد أرى « الظلم » منذ ذلك الوقت حتى الآن .. فقد ظل في سلك الجندية بينما غادرتها أنا لعاهتي

ولكني حين رأيت تلك السترة القديمة في ذلك الحانوت بجانب المعسكر الذي يقيم فيه القاتل الآن أعاد منظرها إلى ذهني في جلاء حوادث تلك الجريمة التي لم ينل مرتكبها جزاءه بعد .. ولم أنقطع من التفكير في أن الكابتن مازال يصيح مستنجدا بالعدالة »

وحاولت ما أستطيع أن أهدئ بيير فيدال وهو على حاله تلك من الاضطراب ، وأخبرته مرارا أنه قد فعل خيرا وأن شجاعة « الظلم » قد محت جريمته

ومرت أيام بعد ذلك . . وحين دلفت إلى حجرة مكتبي يوما ناولني فيدال جريدة الصباح وقد طواها بحيث يظهر منها ذلك الخبر الذي قرأته كما يلي :

ضحية أخرى من ضحايا الإفراط في الشراب

وحدث بعد ظهر الأمس في شارع جرينيل أن رجلا يدعى ماليه وشهرته « الظلم » وهو شاويش في الحرس الإمبراطوري كان قد أفرط في الشراب في إحدى الحانات هناك مع زميلين له وكان واقفا يتطلع إلى حانوت لبيع الملابس القديمة ، وفجأة اعترته حالة من الهذيان الثمل فأخرج سلاحه وجعل يعدو كالمعتوه ، ولكن تمكن زميلاه من الإمساك به وهو يصيح أنه ليس بقاتل .. وأنه استولى على علم نمسوي في ملنيانو . وقد علمنا أن ماليه نال وساما على شجاعته في الحرب ، وأن إدمانه على الشراب هو الذي منعه من متابعة ترقيته . وقد نقل إلى المستشفى العسكري وسيحول بعدها إلى مستشفى سارنتون للأمراض العقلية حيث يقال إنه لن يستعيد قواه العقلية بتاتا .!

فأعدت الجريدة إلى بيير فيدال الذي رمقني بنظرة لها معناها ثم قال . لقد كان الكابتن كورسيكيا وقد حصل على انتقامه .

حسن فتحي خليل